الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا *

(الخامسة) الصدق في الاعمال وهو أن يجتهد حتى لاتدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لا يرائي غيره ولكنه في الباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهو كاذب بلسان الحال في عمله غير صادق فيه فالصدق فيه هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره *

اذا السرّ والاعلان في المؤمن استوى فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا
فان خالف الاعلانُ سرًّا فما له على سمه فضل سوي الكدّ والعنا

ثم درجات الصدق لانهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الامور دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا *

كتاب المحاسبة والمراقبة

﴿ بيان لزوم المحاسبة ﴾

قال الله تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم

بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴾ وقال تعالى ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ﴾ وقال تعالى ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ *

استدل بذلك أرباب البصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد . وانهم سيناقشون في الحساب . و يطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات . فتحققوا انهم لا ينجيهم من هذه الاخطار الا لزوم المحاسبة . وصدق المراقبة . ومطالبة النفس في الانفاس والحركات . ومحاسبتها في الخطرات واللحظات . فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه . وحضر عند السؤال جوابه . وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته . وطالت في عرصات القيامة وقفاته . وقادته الى الخزي والمقت سيئاته . فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها . وخطراتها وخطواتها . فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فانقضاء هذه الانفاس ضائعة أو مصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل *

﴿ بيان مشارطة النفس ﴾

اذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه لمشارطة النفس فيقول لها مالي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطاب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم عليّ به . ولو توفاني لكنت أتمنّى أن يرجعني الى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحا فاحسبي انك قد توفيت ثم قد رددت فاياك ثم اياك أن تضيعي هذا اليوم فان كل نفس من الانفاس جوهرة لاقيمة لها فلاتميلي الى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وان دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لايطاق . وقد قال بعضهم هب ان المسيء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين . أشار به الى الغبن والحسرة وقال الله تعالى ﴿ يومَ يَجمعُكمْ ليومِ الجمعِ ذلكَ يومُ التّغابُنِ ﴾ فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل فيوصيها بحفظها عن معاصيها *

(أما العين) فيحفظها عن النظر الى وجه من ليس له بمحرم أو الى عورة مسلم أو النظر الى مسلم بعين الاحتقار ثم اذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر الى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر الى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة *

وهكذا ينبغي أن يفصل الامر عليها فى عضو عضو لاسيما اللسان والبطن

(أما اللسان) فلانه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه فى الحركة . وجنايته عظيمة بالغيبة . والكذب . والنميمة . وتزكية النفس . ومذمة الخلق والاطعمة والطعن . والدعاء على الاعداء . والمماراة فى الكلام . وغير ذلك مما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع انه خلق للذكر . والتذكير . وتكرار العلم . والتعليم . وارشاد عباد الله الى طريق الله . واصلاح ذات البين . وسائر خيراته (واما البطن) فيكلفه ترك الشره . وتقليل الاكل من الحلال . واجتناب الشبهات . ويمنعه من الشهوات وهكذا يشرط عليها فى جميع الاعضاء واستقصاء ذلك يطول . ولا تخفى معاصى الاعضاء وطاعتها ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تكرر عليه فى اليوم والليلة وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وكذا فيمن يشتغل بشئ من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس وقلما يخلو يوم عن مهم جديد وواقعة جديدة يحتاج الى أن يقتضي حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرها مغبة الاهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ وذَكِّرْ فإنّ الذّكرَى تَنفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ *

﴿ فضيلة المراقبة ﴾

روى ان جبريل عليه السلام سأل النبي صلوات الله عليه عن الاحسان

فقال ﴿ أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنّكَ تراهُ فإنْ لم تكُنْ تَراه فإنهُ يراكَ ﴾ وقد قال تعالى (أفَمَنْ هوَ قائمٌ على كلّ نفْسٍ بما كَسَبتْ) وقال تعالى (ألم يَعلَمْ بأنّ اللهَ يرَى) وقال تعالى (إنّ اللهَ كانَ عليكُمْ رَقيباً) وقال تعالى (والّذينَ هُمْ لِأماناتِهمْ وعَهْدِهمْ راعُونَ . والذين هُمْ بِشَهاداتِهمْ قائمُون) وسئل بعضهم عن قوله تعالى (رَضِيَ اللهُ عنهُمْ ورَضُوا عنهُ ذلكَ لمَنْ خَشِيَ رَبّهُ) فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وقال رجل للجنيد بم استعين على غضّ البصر فقال بعلمك أن نظر الناظر اليك أسبق من نظرك الى المنظور اليه *

﴿ حقيقة المراقبة ﴾

المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهمّ اليه ويُعنَى بها حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب أمّا الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب وملاحظته اياه وأما المعرفة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وان سرّ القلب فى حقه مكشوف كما ان ظاهر البشرة للخلق مكشوف ثم المراقب في أعماله نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أما قبل العمل فلينظران همه وحركته أهى لله خاصة أو لهوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فان كان لله تعالى أمضاه وان كان لغير الله استحيى من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله اليه وعرفها سوء فعلها وانها عدوة نفسها وأما

النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل فذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى اتمامه ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه *

وهذا ملازم له فى جميع أحواله . لانه لا يخلو اما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح . فمراقبته فى الطاعات بالاخلاص والاكمال ومراعاة الادب وحراستها عن الآفات . وان كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتكفير . وان كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الادب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالي عليه . أما فعل يلزمه مباشرته . أو محظور يلزمه تركه . أو ندب حث عليه ليسارع به الي مغفرة الله تعالي ويسابق به عباد الله . أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) ومن كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الاعمال ليشتغل بها . فان من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون . والارباح تنال بمزايا الفضائل *

﴿ بيان محاسبة النفس بعد العمل ﴾

قال تعالى ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ وهذه اشارة الى المحاسبة على مامضى من الأعمال . وقال تعالى ﴿ وَتُوبُوا الى

اللهِ جميعاً أيُّها المؤمنونَ لعلّكم تُفلحُونَ ﴾ والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقال تعالى (إنَّ الّذينَ اتّقَوْ إذا مَسَّهُمْ طائف مِنَ الشّيطانِ تَذَكّرُوا فإذَاهُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إنّي لأستغفرُ اللهَ تعالى وأتوبُ إليهِ في اليومِ مائةَ مرّةٍ ﴾ وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا . وقال مالك بن دينار رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً : اذا علمت هذا فينبغي أن يكون المرء في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا . وكيف لايحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد . ماهذه المساهلة الا عن الغفلة وقلة التوفيق ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبيّن له الزيادة من النقصان فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وان كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فليحاسبها على الفرائض أولا فان أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء . وان أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل . وان ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومعاتبتها ليستوفي منها

مايتدارك به مافرط كما يصنع التاجر بشريكه . وليتكفل بنفسه من الحساب ما يتولاه غيره فى صعيد القيامة *

﴿ توبيخ النفس ومعاتبتها ﴾

اعلم أن أعدى عدوّك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة الى الشر فرارة من الخير وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فان أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وان لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة رجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة الى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلنّ ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها قال تعالى ﴿ وذكّر فإنّ الذكرى تنفعُ المؤمنين ﴾ وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تتمزز بفطنتها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول لها يانفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا . أما تعرفين مابين يديك من الجنة والنار وانك صائرة الى احداهما على القرب فما لك تشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم . أما تعلمين أن كل ماهو آت قريب وأن البعيد ماليس بآت أما تدبرين قوله تعالى (اقتربَ للناسِ حسابُهم وهم فى غفلةٍ معرضون مايأتيهم من ذكرٍ من ربّهم محدث إلاّ استمعوهُ وهم يلعبون لاهيةً قلوبُهم) ويحك يانفس ان كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لايراك فما أعظم كفرك . وان كان مع

علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك *

ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيهات هيهات جرّبي نفسك ان أهلك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة فى الشمس أو فى بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك . أم تغترين بكرم الله وفضله فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك فاذا أرهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل اليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أنّ سنة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان إلاّ ماسعى . يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فانه قادر على ذلك أفتظنين أن العبد ينجو بغير سعى هيهات كما لا يندفع برد الشتاء إلاّ بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها الا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وانما كرم الله تعالى فى أن عرّفك طريق التحصن ويسّر لك أسبابه لا فى أن يدفع عنك العذاب

دون حصنه انظرى يانفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال وفى دار زوال لدار مقامة وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود واعلمى أنه ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتعظى يانفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار فهذه طريق القوم فى معاتبة نفوسهم ومقصودهم منها التنبيه والاسترعاء ومن أهمل المعاتبة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله عنه راضيا *

كتاب التفكر

﴿ فضيلة التفكر ﴾

اعلم انه قد أمر الله تعالي بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالي (الَّذينَ يَذْكُرُون اللهَ قِياماً وقُعُودًا وعلى جنوبِهم ويتفكَّرُونَ فى خَلقِ السّمواتِ والأرض رَبّنا ما خَلقْتَ هَذَا باطِلاً) وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ان قوماً تفكروا فى الله عز وجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم (تَفكَّرُوا فى خَلقِ اللهِ ولا تَتفكَّرُوا فى اللهِ) وروى فى السنة (تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من عبادَةِ سَنَةٍ) وقال حاتم (من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف)